إستراتيجية حرب العقول

عامر مصباح
أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية
جامعة الجزائر 3

مقدمة:

الافتراض العام لهذه الإستراتيجية هو أن الحروب والنزاعات الأهلية والدولية هي مجال للتفاعل الإدراكي المعقد قبل أن تصبح حقائق إستراتيجية ملموسة، أو بطريقة أخرى، تحدث الحرب وتستمر في البيئة الإدراكية لصناع القرار وقادة جماعات التمرد وزعماء والإثنيات الانفصالية قبل أن تنشب في الواقع الإستراتيجي الملحوظ. على اعتبار أن في معظم الأحيان أن سلوك الإنسان هو موجه بواسطة إدراكاته وتصوراته للأشياء وليس بواسطة حقائق القوة، والأعمق من ذلك أن الإنسان يتصرف إزاء البيئة الخارجية كما يدركها لا كما هي موجودة فعليا. لذلك، إستراتيجية الحرب أو تثبيت السلم الدولي تصمم في المقام الأول من أجل ربح معركة العقل أو الإدراك، من حيث تعديل الإدراكات أو تصحيح سوء الإدراكات أو بناء الجديد منها. فالإستراتيجية في المقام الأول هي ذات أسس معرفية وبأدوات الإعلام والاتصال والمعلومات وحول موضوع الأفكار.

مفهمة الإدراك كبيئة للأمن

يرجع الفضل في لفت الانتباه لمتغير الإدراك كمصدر للاستقرار وعدم الاستقرار إلى روبرت جيرفيز Robert Jervis؛[1] الذي قسّم البيئة الإدراكية إلى مجالين مهمين هما: المجال النفسي (العالم كما يراه الفاعل) والمجال العملياتي (العالم الفعلي الذي تجري فيه السياسة)، وما بين المجالين تتفاعل أهداف رجال الدولة وقادة التمرد وكل الفواعل الأخرى وحساباتهم وإدراكاتهم بطريقة أو بأخرى. إن مثل هذا التقسيم يفيد في معرفة الدوافع والأحداث الخلفية للسلوك الظاهري لهذا الطرف أو ذاك، ويحدد أيضا مستويات التدخل المعرفي في إعادة التشكيل الإدراكي؛ إذ يمكّن من الذهاب إلى ما وراء الإجابة عن تساؤل لماذا الدولة "أ" تصرفت بالشكل الذي تصرفت به ولم تتصرف بشكل آخر مفترض؟

إن معرفة الإدراكات الحقيقية لصناع القرار وقادة التمرد وكل من يصنع القرار في قمة الفواعل المنخرطة في النزاع هي عملية صعبة ومعقدة وتبقى نتائجها دائما نسبية؛ بسبب ارتباطها بتعقيدات الأنظمة النفسية للإنسان. إلا أن طرح هذه المشكلة لا يعني أنها بدون حل، لذلك الطريق المناسب في تقليص هذا التعقيد هو إعادة تصور وتنظيم أهداف صناع القرار في وحدات الفواعل المختلفة وتحديد حساباتهم وتشخيص إدراكاتهم للبيئة الإستراتيجية، على افتراض أن الباحث يشارك صانع القرار بعض هذه الخاصيات في التفكير والإدراك وبالتالي يستطيع أن يفهمها. فمعرفة طريقة تفكير صانع القرار هي السبيل لفهم طريقة تصرفه خلال فترات النزاع والأزمات الأمنية، إحدى مكونات هذا التفكير مضمون الإدراك للبيئة الإستراتيجية وتصور التهديدات وطبيعة النظرة للخصم والخلفية التاريخية للعلاقة مع

(1)- Robert Jervis, « Perception and Misperception in International Politics, » in International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globalism, ed. Paul R. Viotti and Mark V. Kauppi, 2nd ed. (New York: MacMillan Publishing Company, 1993), pp. 286-99.

الخصم والخبرة بالنزاعات. فبالنسبة لروبرت جيرفيز، يشكل الإدراك/سوء الإدراك متغيرا مستقلا مهما في فهم قرارات الحرب والسلم والميل نحو مقاربات الحرب من غيرها وتفسير دافعية الاستمرار في النزاع؛ لأنه يذهب بالباحث إلى ما وراء المظاهر المادية للنزاع حيث البنية المعرفية وأعماق تفكير الإنسان وتعقيدات العقل في الفهم والتصور. الافتراض الخلفي هنا هو أن الإنسان ليس مدفوعا بإملاءات البيئة الفيزيقية المادية في تبني خيار معين دون آخر بقدر ما هو مدفوع أكثر بطبيعة إدراكه لعالم السياسة والأمن حوله والفواعل الأعداء والأصدقاء وتراكم الخبرة المعرفية في ذهنه حول الآخرين والحسابات التي يحملها وبالنهاية التفضيلات المعرفية في حل المشاكل التي تواجهه. بمعنى آخر، مستوى التحليل الأساسي هو البيئة الإدراكية لصناع القرار لدى أي طرف معني بالبيئة الإستراتيجية.

يحدد التركيز على البيئة الإدراكية مستويات المسؤولية عن النتائج السلبية المترتبة عن أخطاء السياسة الخارجية للدول ومسؤولية الفواعل الفرعية داخل الدول عن التدهور في الوضع الأمني أو نشوب الحرب الأهلية أو الإقليمية، على افتراض أن صناع القرار في الوحدات المختلفة مدفوعون بواسطة إدراكاتهم والصور المعرفية التي يحملونها وليس المصلحة الوطنية كما يعتقد أنصار الواقعية/الواقعية الجديدة؛[1]لأن افتراض الواقعية غير دقيق وصعب توظيف "المصلحة" كوحدة لتحليل قضايا الأمن والإستراتيجية والذهاب إلى الحدود العميقة للنزاعات والحروب. بسبب وحدات التحليل الموظفة من قبل الواقعية الجديدة خاصة "المصلحة الوطنية" و"الفوضى"، تنفي أي مسؤولية للأفراد عن البيئة الإستراتيجية والتدهور في الوضع الأمني على افتراض أنهم مدفوعون بواسطة الحرب القاسية والمنافسة الأمنية الشديدة والخوف من الوقوع ضحية الاعتداء؛ في حين إستراتيجية حرب العقول تفترض أن الحرب تدار في العقل وأن إدراكات الفرد هي المسئولة عن عدم الاستقرار بسبب تشوهات في الإدراك أو الصور المعرفية الصارمة في الذهن التي توجه السلوك وتنتقي الخيارات بشكل أعمى ومتطرف. بناءً على ذلك، محل الاهتمام والتركيز سوف لا يكون حول قوة الدولة المادية وأهداف السياسة الخارجية والدوافع الجيو-سياسية، وإنما جمع المعلومات حول البنية المعرفية لصناع القرار في الوحدات المختلفة والأفكار والتصورات التي يحملونها ومعالجتها بطريقة صحيحة؛ لأنها هي التي تقود لماذا تنشب النزاعات في منطقة معينة دون أخرى بالرغم من التشابه في سلوك الدول كما يدعي الواقعيون الجدد.

الإدراكات وبناء الصور المعرفية

لقد ناقشت في كتاب "المنظورات الإستراتيجية في بناء الأمن 2013" الإستراتيجيات الأمنية التي يمكن أن تلجأ إليها الدول في تثبيت الاستقرار واحتواء التهديدات الأمنية المختلفة وفض أو حسم النزاعات فيما بينها. لكن عندما انتهيت من الكتاب، ظهر تحدي معرفي آخر طرح كنتيجة لحادثة قتل جماعة التوحيد والجهاد المالية للدبلوماسي الجزائر طاهر تواتي في بداية سبتمبر 2012. يتمثل هذا التحدي في ظهور تساؤل جدي مفاده: كيف يمكن للدول أن تتصرف حيال النزاعات الأهلية كالوضع الذي تواجهه سوريا اليوم أو اليمن أو أفغانستان أو العراق؟ كيف يمكن تخطي الصعوبات الأمنية العابرة للحدود من دول أخرى مصدرها ليس الدول وإنما الجماعات شبه عسكرية وعرقيات انفصالية وجماعات إرهابية ومنظمات الجريمة المنظمة كما هو الوضع الأمني القائم على الحدود الجنوبية للجزائر مع دول الساحل؟ ما هي الإستراتيجية الفعالة التي توجّه نحو تثبيت الاستقرار الأمني عندما تجد قوات الأمن والجيش

(1) -Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations: The Struggle For Power And Peace, 5th ed. (New York: Alfred A Knof, 1978), pp. 4-15.

الوطني نفسيهما في مواجهة مباشرة مع مواطني الدولة؟ ما هي المكونات الرئيسية التي يجب أن تتضمنها الإستراتيجية الأمنية لمواجهة التهديدات الأمنية المحلية المستمرة لفترة طويلة والتي تتميز بالإنتاج الذاتي لحيويتها ونشاطها وتماسكها؟

تنطلق الإجابة على هذه التساؤلات من الافتراض الأساسي القائل بأن الحرب والسلم يصنعان في العقل قبل أن يتجسدا في البيئة الإستراتيجية، لذلك التهديدات الأمنية ناتجة عن سوء الإدراك للبيئة بأنها بيئة معادية أو الشعور بالاضطهاد أو وجود صورة معرفية مشوهة متأصلة في الإدراك توجه سلوك الفرد بشكل خاطئ نحو تبني فقط المعلومات التي تؤيد الإدراكات المشوهة لديه والأفكار المسبقة وإلغاء المناقض منها.

لذلك، تقوم إستراتيجية حرب العقول على تحليل الإدراكات المناوئة وإعادة تصحيح أو بناء الجديد منها، لأن النزاع أو الحرب تحدث في العقول قبل أن تحدث في البيئة الفيزيائية للحرب، على اعتبار أنه طالما بقيت الإدراكات المناوئة محافظة على تماسكها كلما استمرت في إنتاج التهديدات وعدم الاستقرار الأمني؛ ومن ثم الإنتاج الذاتي للنزاع. فالسلوك العنيف يبدأ ويصنع ويرسخ ويتماسك بواسطة الأدلة كما هي مدركة وصَفّ من التبريرات في العقل الإنساني وطريقة إدراك البيئة الخارجية. وعند تحليل البنية العقلية المنتجة للتهديد فإنه يمكن طرح مجموعة من المصطلحات أو المفاهيم الموجّهة للسلوك الفعلي للأفراد والجماعات وحتى صناع القرار في حكومات الدول؛ وهي بمثابة وحدات تحليل للمضمون المعرفي لهذه الإستراتيجية، وهي كالتالي:

1-صور العدو ومرآة الصورة: تركز الإستراتيجية في هذا المستوى من التحليل على الصور العامة التي يحملها الأفراد والجماعات التي تميل إلى استخدام العنف في التعبير الاجتماعي والسياسي خاصة الصور المعرفية عن الآخر والصور عن الذات. ولذلك، يعد المدخل النظري المعرفي[1]لهذه الإستراتيجية مصدرا قويا ومهما في فهم أفضل للنزاع الدولي والحرب عامة والحروب الأهلية بصفة خاصة.

وكانت إحدى أكثر الدراسات الرائدة التي نوهت بدور الإدراكات –كمتغير مستقل- في تحليل حالات السلم والنزاع هي دراسة أول هولستيOle Holsti حول "صورة العدو Image of the Enemy". فقد اعتقد هولستي أن مفهوم العدو الذي يحمله صناع القرار في أذهانهم يساعد كثيرا على تفسير وفهم النزاع الدولي وتطوره عبر الزمن. فمن أجل إيجاد –مثلا- فهم أفضل للعداء الأميركي - السوفياتي وتطور الحرب الباردة، طبق هولستي منهج دراسة حالة من أجل فحص صورة الاتحاد السوفياتي المعرفية التي يحملها وزير الخارجية الأميركي الأسبق جون فوستر دلاس John Foster Dullesفي ذهنه. افترض هولستي أن الصور المعرفية حول العدو –استخلاصا من حالة صورة دالاس حول الاتحاد السوفياتي- تميل إلى تأكيد استمرارية الذات ورفض الآخر بغض النظر عن التغييرات التي يمكن أن تطرأ على سلوك العدو في عالم الواقع، ورفض كل الافتراضات بأن الآخر يمكن التفاوض معه أو أنه ليس شريرا بشكل كلي.

كما يمكن تحليل الصور المعرفية من خلال دراسة وبحث تصريحات الأفراد ورؤساء التنظيمات وتحليل محتوى خطابهم السياسي في الكتب والمجلات التي يصدرونها والمواقع الإلكترونية التي يبثون بواسطتها سياساتهم ودعايتهم. أيضا يمكن توزيع استبيانات على الأفراد المناصرين لهذه الجماعات أو

(1)- Brian Riply, "Cognition, Culture, and Bureaucratic Politics," in Foreign Policy Analysis: Continuity and Changing in Its Second Generation, ed. Laura Neack, Jeanne A. K. Hey, and Patrick J. Haney (New Jersy : Prentice Hall, Englewood Cliffs, n. d.), pp. 89-99.

على المنتمين فعليا لها الموقوفين في السجون أو إرسالها عبر الإنترنت لاستخلاص الأفكار الأساسية وتكوين صورة متكاملة حول طريقة إدراكهم للآخر ووعيهم بالواقع ونظرتهم للمستقبل وحتى معرفة طريقة تفكيرهم الأمني والسياسي. الأساس النظري الذي تقوم عليه مثل هذه الدراسات هو النتيجة التي توصل إليها هولستي بأن السبب الخلفي وراء الموقف العدائي الشديد الذي حمله دلاس ضد الاتحاد السوفياتي هو الصورة المعرفية الصارمة التي كوّنها في ذهنه بأنه عدو، والتي جعلته لا يلتفت إلى التغيرات المهمة التي تحدث داخل الاتحاد السوفياتي بموت ستالين وسياسة الانفراج الدولي وتراخي القبضة الحديدية على أوربا الشرقية.

تتألف الصور المعرفية من عناصر إدراكية يكونها الفرد عبر الزمن كنتيجة لخبرة مؤلمة أو نمط تنشئة معينة، عندما تستحكم في عقله، تصبح مسيطرة على توجيه سلوكه ويتجنب إدراك كل المعلومات المناقضة لهذه الصورة، ووعي فقط الحقائق ومكونات البيئة المؤيدة لمضمون الصورة المعرفية التي يحملها. فإذا أخذنا حالة جون فوستر دالاس، وُجِد أنه كان يقاوم بحدة كل المعلومات المناقضة لإدراكه عبر مباشرة سلسلة من العمليات المعرفية والنفسية مثل التشكيك في المعلومات والبحث عن معلومات أخرى منسجمة مع صورته المعرفية القائمة في ذهنه، وإعادة تفسير المعلومات والتركيز على الاختلاف بين الجوانب المختلفة للمعلومات، والميل إلى التفكير المرغوب ورفض التفكير حول المعلومات الجديدة.

وفقا لهولستي، استمرار تأكيد الذات ومقاومة وجود التغيير في الصورة المعرفية لدالاس حول الاتحاد السوفياتي كانت قائمة على نموذج "الاعتقاد الجوهري السيئ Inherent Bad Faith" نحو العدو، والمتضمن فكرة أنه مادام الاتحاد السوفياتي مجتمعا منغلقا ومحكوما بواسطة الشيوعيين الشموليين، فإنه يمثل قيما مناقضة لجوهر نظام الاعتقاد لدى دالاس. وهو نفس الوصف تقريبا الذي تطلقه جماعات التمرد والمعارضة المسلحة على الحكومات الوطنية بأنها حكومات عنصرية، فاسدة، شمولية، وغيرها من الأوصاف التي تبرر بطريقة أخرى أعمال العنف التي تقوم بها والسياسات التي تتبناها. فبمناسبة إعلان جماعة التوحيد والجهاد في شمال مالي قتل الدبلوماسي الجزائري طاهر تواتي في سبتمبر 2012، بررت هذا الفعل المأساوي بجملة من الشكاوى منها الفقر والمعاناة وسوء الظروف الاجتماعية وظلم الجنرالات وغيرها؛ وهي المكونات المعرفية للصورة المعرفية التي يحملونها حول الآخر.

لا يتناول مستوى التحليل فقط الصورة المعرفية لطرف واحد في العلاقة النزاعية، وإنما يجب أن يشمل الإدراكات المحمولة من قبل الطرفين أو مجموعة الأطراف من وجهة نظر جيرلروزاتي .JerelA Rosati[1]عندما طرحت مصطلح "صور الذاكرة Mirror Images"؛ على افتراض أن كل طرف يحمل صورة مضادة تماما للآخر، بحيث أن كل طرف له صورة معرفية ذاتية خيرية إيجابية نحو نفسه في مقابل وجود صورة معرفية سلبية وحاقدة حول العدو.عادة هذه العلاقة المتضادة هي التي تتحكم في صف التفاعلات النزاعية بين الحكومات الوطنية وجماعات التمرد، ومن ثم إهمال نشر وتسويق الصورة الجيدة لأداء الحكومة وشرعيتها يعتبر جهدا معززا لموقف جماعات التمرد والعكس صحيح. الأعمال العلمية السابقة التي أجريت حول دور الإدراك/سوء الإدراك في نشوب النزاعات – مثل أعمال رالف وايت Ralph White، والتي منها كتابه "لا أحد يريد الحرب Nobody Wanted War" الذي نشر عام 1966 وكتابه "سوء الإدراك في فيتنام والحروب الأخرى Misperception in Vietnam and

(1)- Jerel A. Rosati, "A Cognitive Approach to the Study of Foreign Policy," in Foreign Policy Analysis: Continuity and Changing in Its Second Generation, ed. Laura Neack, Jeanne A. K. Hey, and Patrick J. Haney (New Jersy : Prentice Hall, Englewood Cliffs, n. d.), pp. 49-50. pp. 54-56.

Other Wars" الذي نشر عام 1968- هي مركزة على حالات الحروب بين الدول، لكن هذا لا يقلص أهميتها في تحليل النزاعات الأهلية باعتبار أن النوعين سلوكا إنسانيا في نهاية المطاف. إذ يميل كل طرف في علاقة النزاع إلى شيطنة الآخر أو بناء "صورة العدو الشيطاني Diabolical Enemy-Image" و"الصورة الذاتية للمعنوية والنشاط Virile and Moral Self-Image"، كوصفين متناقضين، تكمن أهمية تناقضهما في الإنتاج الحيوي والمستمر للنزاع؛ بالإضافة إلى استمرار العملية الإدراكية المشوهة التي توجه كل طرف نحو الانتقاء الإدراكي وغياب التعاطف وسيطرة الثقة المفرطة في القوة العسكرية؛ فهي عملية مشابهة للتفكير بطريقة إسقاط إدراك أسود وأبيض على الأشياء المؤدية إلى تصعيد النزاع وتفضيل الخيار العسكري في معالجة النزاع بدل الخيار السلمي.

2-الرمز العملي: المكوّن الآخر في إستراتيجية حرب العقول هو "الرمز العملي The Operational Code" المتعلق بنظام الاعتقاد الذي يحمله قادة الجماعات المتمردة وصناع القرار في الحكومات الوطنية. يتضمن الرمز العملي معنى وجود سلسلة من الأفكار والاعتقادات المتماسكة معرفيا في اتجاه واحد غير قابل للمرونة حول قضايا السياسة والبيئة الإستراتيجية. وعموما يمكن تصنيف الاعتقادات التي يتضمنها الرمز العملي إلى نوعين الاعتقادات الفلسفية Philosophical Beliefsوالاعتقادات الأداتية Instrumental Beliefs.تعني الاعتقادات الفلسفية وجود مجموعة من الافتراضات والمقدمات المنطقية المفسرة لطبيعة النزاع وطريقة إدارة الحرب وصورة الخصم والنظرة للمستقبل وكل ما من شأنه يتضمن التفسير الإيديولوجي للأشياء. أما النوع الثاني، فيعني الجانب التكتيكي والأداتيلإستراتيجية الحرب والسيطرة على البيئة الإستراتيجية والمفهمة العملية والأمنية للتهديدات والزمن الذي يجب أن تنفذ خلاله إستراتيجية احتواء المخاطر الأمنية وتحديد الأدوات اللازمة في المقاومة وتحقيق النصر أو الهجوم وإحباط إستراتيجية العدو. بمعنى آخر، الاعتقادات الأداتية هي المفهمة العملية للاعتقادات الفلسفية.[1]

تكمن الفائدة العملية لمكون "الرمز العملي" في المساعدة على إيجاد العلاقة الوثيقة بين نظام الاعتقاد وطبيعته الذي يحمله قادة جماعات التمرد وصناع القرار في الحكومات الوطنية والسلوك الفعلي في البيئة الإستراتيجية وطريقة صناعة القرار والقدرة على توقع الخيارات التي يمكن أن يميل إليها كل طرف أو تحظى دائما بالأولوية. إن أي تأثير على مخرجات إستراتيجية حرب العقول، تبدأ من الرمز العملي الذي يحمله كل طرف: تشخيصه وتحديد خاصياته ثم التأثير عليه إما بخلق التناقض أو التوافق أو التغيير. ولقد طرحت نظرية التنافر المعرفي لليون فيستنجر[2] أدوات عملية في تغيير الاتجاهات والأفكار التي يحملها الأفراد. وفي الحالات القاسية، مجرد المعرفة والتحديد الدقيق للرمز العملي الذي يحمله الخصم يعد خطوة كبيرة نحو السيطرة الأمنية على البيئة الإستراتيجية واحتواء تهديدات العدو، وذلك لأنه يساعد في النهاية على توقع الخطوات اللاحقة للسلوك أو القرارات التي يمكن أن يتخذها.

3-رسم الخريطة المعرفية: المكوّن الثالث في إستراتيجية حرب العقول هو تحديد أبعاد "الخريطة المعرفية Congnitive Mapping" التي يحملها قادة التمرد وصناع القرار في الحكومات الوطنية. يعني مفهوم الخريطة المعرفية، تكوين مجموعة خاصة من الاعتقادات المرتبطة بقضايا السياسة والأمن والإستراتيجية في عقل صانع القرار أو أي قائد آخر، بحيث يمر الأفراد بخمس خطوات معرفية عند وعي وإدراك البيئة الإستراتيجية المحيطة بهم وتكوين الخريطة المعرفية وهي:

(1) - Jerel A. Rosati, Op. Cit., p. 56.

(2) -Leon Festinger, « An Introduction to the Theory of Dissonance," In Sources: Notable Selections in Psychology, 2nded., ed. Terry F. Pettijohn (United States of America: Dushkin/McGraw-Hill, 1997), pp. 329-36.

1- التضخيم الأولي لعناصر البيئة المشتق من اعتقاد أن الخصم شرير والخطر داهم ورفض الوقوع في الأسر أو تحت سيطرة العدو.

2- البحث عن السوابق المعرفية في الذاكرة من أجل أن توظف في تفسير الأحداث الجديدة التي يواجهها صانع القرار أو أي قائد آخر.

3- البحث وتحديد عواقب السلوك المستقبلي المحتمل للأطراف المنخرطة في القضية.

4- البحث عن البدائل السياسية الممكنة للخيار المتخذ، في حالة فشله.

5- وأخيرا انتقاء خيار السياسة الذي يتم تبنيه في معالجة الوضع الذي يواجه صناع القرار.[1]

وعلى الرغم من أن المفهوم يضفي النظرة المادية على العمليات المعرفية للعقل، إلا أنه يساعد على تجسيم العملية بشكل يجعلها أكثر قابلية للفهم والاستعانة بتقنيات الحاسوب في إدارة إستراتيجية حرب العقول، من خلال جمع البيانات ومعالجتها بطريقة صحيحة بواسطة الحاسوب وتحديد خيارات التوقع السلوكي. بطريقة أخرى القيام بعملية محاكاة للبيئة الإستراتيجية الفعلية ومواقف الفواعل وطريقة السلوك إزاء المنبهات على شاشة الحاسوب في الواقع الافتراضي كمقدمة للتعامل الفعلي المباشر.

4-الإدراك الانتسابي

يتضمن مفهوم "الإدراك الانتسابي Attributional Percption" مفهمة الحرب وعدم الاستقرار الأمني بعزو سببهما إلى العدو كطريقة لحث السلوك على مواصلة الحرب واستمرار المقاومة والصمود. إن هذا المفهوم هو مشتق من الأدبيات النفسية المطورة ضمن نظرية الانتساب.[2] الفكرة العامة لنظرية الانتساب هي أن الفرد عندما يقوم بتفسير أسباب الأحداث والنتائج السلوكية، فإما أن يربطها بأسباب داخلية ذاتية خاصة بشخصيته أو يرجعها إلى أسباب خارجية متعلقة بالبيئة المحيطة به والفواعل الذين يتفاعل معهم. على السبيل المثال سلوك الفشل، إما يرجعه الفرد إلى أسباب ذاتية خاصة به ويسمى هذا النوع بالانتساب الداخلي؛ أو يرجعه إلى أسباب خارجة عن إرادته وذاته ويسمى عندئذ بالانتساب الخارجي. لكن في ظروف النزاع والحرب، غالبا يلغي أطرافها النوع الأول من الانتساب (الداخلي) ويركزون فقط على النوع الثاني الذي يلقي بالمسئولية والتوبيخ على الخصم وحده، سواء تعلق الأمر بتدهور الوضع الأمني أو انتهاكات حقوق الإنسان أو انهيار المصالح الوطنية. تتحول بدورها هذه الانتسابات إلى مبررات يتم إدراجها في المضمون الدعائي لحفز سلوك الحرب واستمرار المقاومة. لا تتبع هذه الانتسابات من فراغ وإنما من تحيزات إدراكية للبيئة الإستراتيجية والخصم، ومن ثم مقاومة كل المعلومات والأفكار التي تناقض هذه التحيزات أو العمل على إهمالها أو تجنبها الفيزيائي (عدم مشاهدة نشرة الأخبار مثلا)، وتركيز الانتباه على المعلومات والأحداث التي تعزز التحيزات الذاتية في القيام بعملية الانتساب. فأكثر المقولات التي يرددها قادة التمرد وصناع القرار في الحكومات الوطنية، "إننا أجبرنا على خوض الحرب"، "نحن ندافع عن أنفسنا"، "العدو يريد استهدافنا بعنف"، إلى غير ذلك من الخطابات التي تحمل في طياتها الانتساب الخارجي وتعمل في نفس الوقت على حث السلوك الحربي باتجاه الاستمرار في الصمود والمقاومة.[3]

(1)-Jerel A. Rosati, Op. Cit., pp. 56-57.

(2) -Robert S. Feldman, Essentials of Understanding Psychology, 3rd ed. (New York: The McGraw-Hill Companies Inc, 1997), pp. 470-80.

(3)-Jerel A. Rosati, Op. Cit., pp. 57-58.

التدخل المعرفي في إعادة التشكيل الإدراكي

من منظور هذه الإستراتيجية، مركز الصراع بين الأطراف المتحاربة هو التأثير على طريقة الإدراك وإعادة تشكيل الصور المعرفية التي يحملها الخصم سواء عن طريق توضيح صورة البيئة الإستراتيجية الفيزيائية وامتيازات السيطرة والتحكم، أو البث الإعلامي وتدفق المعلومات المكثفة لتغيير الاتجاهات المعادية وأخطاء الإدراك. الافتراض الخلفي لهذا المستوى من الإستراتيجية هو قابلية الإدراكات للتغيير وإعادة البناء طالما أنها في الأصل تشكلت عبر الزمن بواسطة الملاحظة والتجربة العملية.

إحدى العوامل الأولية المساعدة على إعادة التشكيل الإدراكي هي طبيعة تركيب شخصية الفرد في حد ذاتها مثل خاصيات الثقة المفرطة في الذات، الخوف من الفشل، الميل إلى المغامرة، النزعة العدوانية المرتبطة بتجارب الطفولة المؤلمة، جنون العظمة. كل هذه الخاصيات تشير إلى مدى تعقد عملية إعادة التشكيل الإدراكي؛ في نفس الوقت يؤدي غياب هذه الخاصيات أو بعضها إلى تمهيد الطريق أمام العملية. الحقيقة أن المختصين[1] في طرق وأدوات الإقناع والتأثير قد صاغوا عددا من التقنيات المساعدة على تغيير البنية المعرفية التي يحملها الأفراد مثل تقنية المجاملة وغسل المخ وتقنية البرهان الاجتماعي وغيرها. لقد أوضحت الخلفية النظرية لهذه التقنيات أن معرفة الخلفية السلوكية التاريخية للفرد هي جزء مهم في إستراتيجية إعادة التشكيل الإدراكي، لأنها تؤدي إلى الوقوف على بداية وأسباب تشكل المحتوى الإدراكي والصور المعرفية حول الآخر والذات وحول البيئة الإستراتيجية وطرق مواجهة الأزمات والصعوبات الأمنية وغيرها من القضايا المعقدة؛ ومن ثم معالجة أو تركيز التأثير المعرفي على هذه النقاط الحاسمة من حياة الفرد التي تجعل العملية ناجحة. لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن ميل أدولف هتلر نحو الخيار العسكري في خدمة المصالح الوطنية ناجم عن النزعة الانتقامية التي تكونت لديه جراء المعاملة الأبوية القاسية في مرحلة الطفولة؛ وأشارت أخرى[2] إلى أن ميل الرئيس الأمريكي جون كنيدي في أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 إلى الخيار السلمي في التعامل معها ناجم عن نزعة الخوف من الفشل الناجمة هي الأخرى عن المعاملة التثبيطية الأبوية في مرحلة الطفولة.

إذا كانت المفردات التحليلية السابقة قد أشارت ضمنيا إلى وجود نوع من التفكير المنطقي في البنية الإدراكية لصناع القرار وقادة التمرد، فإنه يمكن أن تواجه إستراتيجية حرب العقول مشكلة أخرى وهي الارتباك الإدراكي الناتج عن حالة الشك والارتياب التي تتملك كل طرف نحو الآخر حول جديته في الحرب أو التعاون أو التفكير بطريقة منطقية. إن مثل هذه الشكوك الإدراكية تؤثر بشكل وظيفي على عملية جمع المعلومات وتقييمها، التي تقوم عليها مواقف كل طرف في البيئة الإستراتيجية؛ الجانب العملي في ذلك أنها تؤدي إلى التحيز في جمع المعلومات ومعالجتها والاستعانة بها في بناء أو تبرير مواقف معينة أو إستراتيجية معينة. إن مشكلة الريبة الإدراكية هي متأثرة بعاملين أساسيين، الأول هو طبيعة المكان الذي يوجد فيه صانع القرار الوطني وقادة جماعات التمرد في علاقته بالموقف الذي يلاحظونه؛ والثاني هو المزاج الداخلي أو البنية الانفعالية والنفسية التي يكون عليها هؤلاء الأفراد. على سبيل المثال، نشوب الحرب الأهلية في ليبيا عام 2011 والقضاء على نظام القذافي نظر إليه قادة التمرد في المنطقة على أنها فرصة لتوفير مصادر للتزود بالأسلحة والذخيرة والمال واستغلال الوضع المتفجر والانتقام من

(1) -جيهان احمد رشتي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام (د.م.: دار الفكر العربي، 1975)، ص ص. 171-75.

(2) - ChaerlesW.Kegley,Jr. And Eugene R. Wittkopf, American Foreign Policy: Pattern and Process, 4th ed. (New York: St. Martin's Press, 1991), pp. 494-99.

الطغاة من وجهة نظرهم؛ ونظر إليه صناع القرار في الجزائر بأنها مصدر تهديد للأمن الوطني من ناحية أنها تقوي الجماعات المسلحة داخل وعبر إقليمي وتزعزع الاستقرار الأمني في كذا ربع من المنطقة.

فالرأي الشائع في أدبيات علم النفس الاجتماعي[1] حول موضوع الإدراك الاجتماعي، أن الناس يدركون بيئاتهم كما يعتقدون ويتصرفون كما يدركون، لا كما هي عليه الحقائق الفعلية. على المستوى الواسع في مجال العلاقات الدولية، نجد دول العالم الثالث في سبعينيات القرن العشرين قد وحدت نظرتها نحو النظام الدولي بأنه مقولب بشكل شديد وفق رغبات القوى العظمى المسيطرة، وتشتق نظرتها من التجربة الاستعمارية المؤلمة. كما يعتقد بوزان أن هذا الافتراض يعمل كقاعدة عامة تسحب على جميع الدول في النظام الدولي، بحيث أن لكل طرف منظور موقفي مختلف حول الموضوعات والأحداث التي تصنع قاعدة المعلومات لنظام صناعة القرار، والبنية المزاجية لكل واحد هي مختلفة بنسبة معينة عن الآخرين. والسبب في ذلك هو وجود تضارب في المصالح والمواقف بين الأطراف. يقضي هذا الافتراض من ناحية أخرى، بأن كل دولة قد كدست تاريخا مميزا من الأحداث الجارية وقامت بتصفيتها، وأصبحت جزءا من منظومتها الثقافية والاعتقادية والبنائية في تشخيص مشاكل السياسة الدولية وإدراك التهديدات والحوافز في النظام الدولي.

إذا انطلقنا من افتراض أن سوء الإدراكات هو مصدر منتج للنزاعات الدولية والحروب الأهلية، فإن التدخل المعرفي يكون مركزا بشكل كبير على تصحيح هذه الإدراكات وتهذيبها وتنقيحها بأدوات مختلفة: البث الإعلامي، الإرشاد الديني تأهيل الصحة النفسية والدورات العلمية. إنه عمل يحاكي دور الحملات الاجتماعية التي تصمم لمحاربة آفة اجتماعية أو تثبيت تقليد جديد في المجتمع، ومن ثم يمكن الاستفادة كثيرا من طرق وأساليب تصميم الحملات الاجتماعية في صياغة برامج تصحيح الإدراكات وإعادة تشكيلها؛ بحيث يمكن توجيه البعض منها إلى حالات خاصة تحت السيطرة الصارمة (أفراد جماعات التمرد داخل السجون أو التائبين)، أو توجه نحو حالات عامة عندما تتعلق بالمجتمع العام أو إلى مجتمعات العدو عبر البث الفضائي وشبكة الإنترنت. كما يمكن الاستفادة كثيرا من الخلفية النظرية حول بناء الاتجاهات وتغييرها وقياسها في علم النفس الاجتماعي[2]وكذلك تقنيات الإقناع[3] المعرفية في تنفيذ برامج التأهيل المعرفي في تصحيح سوء الإدراكات. هذا التصحيح لا يستهدف في كل الأوقات التغيير الجذري للإدراكات، وإنما يمكن أن يستهدف تقريب وجهات النظر أو تلميع نقاط التقاطع بين الأطراف المتخاصمة، أو التشجيع على إنجاز الأهداف المشتركة وهكذا. لكن نجاح العملية متوقف على الوضع القائم في البيئة الإستراتيجية، التي تتميز بسيطرة أمنية نسبيا بحيث تخلق لدى العدو شعور بصعوبة تحقيق نصر حاسم أو التقدم في عملية القتال الميداني؛ وهو المناخ الذي يهيئ الخصم لقبول عملية التدخل المعرفي في تصحيح سوء الإدراكات. بدون السيطرة الأمنية، فإن الرهانات تبقى معلقة على إمكانية كل

(1) - Robert S. Feldman, Essentials of Understanding Psychology, 3rd ed. New York: The McGrew-Hill Companies, Inc. 1989), pp. 74- 88.

(2)- Dagmar Stahberg and Dieter Frey, «Attitudes: Structure, Measurement and Functions, » In Introduction to Social Psychology, 2nd ed. Ed. Miles Hewstrone, Wolfgang Stroebe, and Geoffrey M. Stephenson (Ney York: Bleckwell Publishers, 1996), pp. 215 -27.

(3 -)روبرت شيالديني، التأثير: وسائل الإقناع، تر. سعد جلال (القاهرة: دار الفكر العربي، 1988)، ص ص. 33 -75.

طرف تحقيق النصر على الآخر أو تحقيق مكاسب إستراتيجية؛ مما يعني بقاء السلوك الحربي محثوثا وفي مستوى عالي من التعبئة القتالية.

بالنظر إلى الدراسات الإستراتيجية التقليدية، نجد أن الإستراتيجية المطروحة لتغيير إدراكات العدو حول البيئة الأمنية هي إستراتجية الشلل الإستراتيجي لجون واردن[1]التي طبقت في حرب الخليج الثانية عام 1991 ضد العراق لإقناع قيادته بالخروج من الكويت. جوهر هذه الإستراتيجية هي تكثيف القصف الجوي بقوة نارية كبيرة على مراكز ثقل العدو وحرمانه من استخدام قواته إلى المستوى الذي يقتنع بعدم جدوى القتال ويستسلم؛ وبالتالي الإنهاء السريع للحرب. لكن نتائج تطبيق هذه الإستراتيجية هي لحد الآن غير مشجعة وليست واعدة. فإذا كانت إستراتيجية الشلّ الإستراتيجي أنهت بشكل سريع الحرب عام 1991، فإنها لم تنه العداءات الدفينة في نفوس العراقيين عام 2003 والأفغانيين عام 2002؛ التي انعكست في حروب عصابات دامت سنوات (في العراق دامت ثماني سنوات، وفي أفغانستان اثني عشر سنة إذا انسحبت قوات الحلف الأطلسي في 2014 كما أعلن عن ذلك في سبتمبر 2012). كذلك بالنسبة للنزاعات الداخلية، لم يستطع الخيار الأمني وحده إنهاء القتال بسبب استمرار الحرب في عقول وإدراكات صناع القرار في الحكومات الوطنية وعقول قادة التمرد. إستراتيجية حرب العقول لا تلغ تماما دور العامل العسكري في تثبيت الاستقرار، ولكن تعترف به فقط عندما يعمل باتجاه تهيئة مناخ تصحيح سوء الإدراكات لدى العدو؛ مما يعني أن الإستراتيجية الأمنية تبنى على مرجعية ربح معركة حرب العقول وليس معركة الحرب العسكرية.

كما يمكن أن يوجه التدخل المعرفي نحو تصحيح المعلومات المظللة لدى الخصم وتقليم حالات التضخيم والتشويه لواقع البيئة الإستراتيجية، عن طريق فتح قنوات تدفق المعلومات الصحيحة وإيجاد فرص وفيرة لحصول العدو على مثل هذه المعلومات طالما أنها تخدم الهدف النهائي لحرب العقول. تتعلق المعلومات في جزء كبير منها بقدرات الردع والإرادة الثابتة في السلم وعدم تهديد المصالح وإمكانية إيجاد علاقات تعاون وبيان جوانب الجذب في وجود علاقات هادئة وسلمية بدل الحرب، وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى استقرار الثقة بين الطرفين. يمكن أن تصحح تشوهات الإدراك أيضا عن طريق اللقاءات المباشرة وجها لوجه بين القادة وتوسّع لأكبر عدد ممكن من المستشارين وصناع القرار، في شكل مؤتمرات أو عقد اجتماعات غداء أو عشاء عمل أو وجود اتصالات مباشرة ومفتوحة بالإضافة إلى الاجتماعات الدورية التي تتيح الفرص للتفاعل البيني. تهدف هذه الإجراءات في عمومها إلى تفادي تحيز الذات في الإدراك واستقرار الصور المعرفية السلبية في الذهن والآثار السلبية لجماعة التفكير في صناعة القرارات غير الوظيفية. تعتبر المظاهر السابقة عيوبا أو ثغرات في تصميم الإستراتيجيات الأمنية الموجهة نحو احتواء تهديدات الخصم، وهي المسئول الأول عن إنتاج عدم الاستقرار الأمني أو استمرار الحروب بين الدول أو الحروب الأهلية. لذلك من منظور إستراتجية حرب العقول، إحدى سبل إقامة السلم وإنهاء الحروب هي تفادي هذه العيوب الوظيفية التي بدورها تنشأ في معظم الأحيان بواسطة التفاعل الجماعي والمستمر بين الأطراف المتخاصمة. تعج أدبيات علم النفس الاجتماعي[2] حول موضوع الاتصال بتراث كبير حول النتائج الإيجابية التي يمكن أن تترتب عن الاتصال المفتوح والتفاعل المباشر

(1)- John A. Wardon, « Employing Air Power in the Twenty-first Century, » In The Future of Air Power in the Aftermath of the Gulf War,ed Richard H. Shultz & Robert L. Pfaltzgraff (: International Security Studies Program,), pp. 60-68.

(2)- John M. Wiemann and Howard Giles, "Communication In Interpersonal and Social Relationships," In Introduction to Social Psychology, 2nd ed. Ed. Miles Hewstone, Wolfgang Stroebe and Geoffry M. Stephenson (USA: BlackWell Publishers, 1996), pp.316 -40.

بين الأفراد وداخل وبين الجماعات؛ لذلك يمكن الاستفادة من هذه الأدبيات في مجال تصحيح الإدراكات المشوهة وسوء الإدراكات.

السبيل الآخر لتصحيح سوء الإدراك وتشوهاته هو التنشئة السياسية والاجتماعية وإعادة صياغة الثقافة السياسية وتنقيحها بما يعزز مضمونها السلم والاستقرار، سواء على المستوى الإقليمي أو المحلي بالنسبة للمجتمعات التي تعاني من انقسامات اجتماعية وعرقية وتعاني من استمرار آلام تجارب الحرب الأهلية. فهذه المشاعر والإدراكات بحاجة إلى إعادة تشكيل وتأهيل من أجل التعافي من آثار الميل نحو النزاعات واستخدام الحرب في معالجة المشاكل الأمنية. النجاح في هذه العملية سوف يساعد على حل أكثر المشكلات تعقيدا في العلاقات الدولية وهي الريبة والشك التي يتغذى منها بشكل مستمر سوء الإدراك، على اعتبار أنها تولد الإدراك المنحط والصور السلبية نحو الآخر وتلغي أو تهمل كل فرص التعاون وإقامة السلم خاصة إذا توطنت في الذهن بشكل مزمن. الفكرة الخلفية وراء ذلك هي أن العيب الوظيفي في الصور المعرفية السلبية يكمن في إعاقة الإدراك الجيد والموضوعي للبيئة الإستراتيجية، وتتصاعد على إثر ذلك المخاوف وأشكال الريبة إلى المستوى الذي تغشى فيه القدرات الإدراكية الصحيحة وتعمي عن المعلومات الصحيحة وتضلل العقل دون القيام بالقراءات والتفسيرات الصحيحة لبيئة صناعة القرار؛ عندئذ يكون تركيز التدخل المعرفي حول فتح المجال أمام العقل ليدرك الحقائق الموضوعية ويقرر على وفقها. إحدى سبل ذلك هي التنبيه إلى خدع الذات والعقل والمشاعر التي يمكن أن تضلل الإدراك، لأن الوعي بهذه الخدع يشكل جزء كبيرا من فعالية إستراتيجية حرب العقول في إنهاء الحروب وتلطيف النزاعات الدولية وتثبيت الاستقرار الأمني. تمثل كل هذه الغايات مستويات متدرجة في صناعة الأمن، على اعتبار أن النجاح في المستوى الأول هو مقدمة للنجاح في المستوى اللاحق.

من ناحية أخرى، يمكن اقتفاء آثار إستراتيجية حرب العقول في ثقافتنا الاجتماعية العامة من خلال بعض العمليات المعرفية التي تحدّث عنها ملفين ديلفور وزملاؤه[1] في إستراتجيات الإقناع الاجتماعي. لقد تحدثوا عن ثلاث إستراتيجيات في تغيير، إعادة التوجيه، وإنشاء المعاني في ذهن الإنسان، وهي: الإستراتيجية الديناميكية-النفسية، الإستراتيجية الثقافية-الاجتماعية، وإستراتيجية إنشاء المعاني. نستطيع القول أن هذه الإستراتيجيات الثلاث هي بمثابة قنوات متباينة للوصول إلى هدف إعادة تشكيل الإدراك؛ وذلك بالعبور عبر الانفعالات والعواطف والحاجات النفسية، عبر المضمون الرمزي الذي تنشّأ عليه الفرد؛ وأخيرا عبر المضمون المعرفي الذي يحمله الفرد أو الجماعة في ذهنه. من منظور الإستراتيجية الأولى، يضع القائمون على تنفيذ إستراتيجية حرب العقول سلسلة خطية من المفاهيم التي هي مفاتيح الولوج إلى العقل ومضمّنة في مصطلحات الحاجات النفسية والدوافع والمعتقدات والمصالح وأسباب القلق والمخاوف والقيم ولآراء والمواقف. "تعتبر هذه العناصر بواعث أساسية لسلوك الفرد، ومعيارا لفهم خيارات السلوك لدى الفرد، وتفضيلاته وأولوياته. بمعنى أنها البوابة الرئيسية لفهم أعمق لعملية الإقناع والتأثير".

تضيف الإستراتيجية الثانية فكرة مهمة في إعادة التشكيل الإدراكي من خلال الوظيفة التي يمكن أن تؤديها الثقافة الاجتماعية حول تشكيل القوالب الاجتماعية في الإدراك وأنماط التفكير، وهي التي يمكن أن تفسر التباين بين الأفراد والجماعات في الإدراك لموضوعات واحدة. فالفرد الذي نشأ في ثقافة مليئة بالرموز التي تحمل معاني العنف والاضطهاد، عادة يدرك الأفعال والمواقف بأنها معادية ويتخذ إزاءها

(1 -)ملفين ديفلوروساندرابول- روكيتش، نظريات وسائل الإعلام، تر. كمال عبد الرؤوف (القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، د. ت.)، ص. 379.

سلوك الحذر والتجنب أو رد الفعل العنيف؛ على عكس الأفراد الذي يتمتعون بمضمون ثقافي سلمي تفاوضي. فجهد إعادة التشكيل الإدراكي مركّز في هذا المستوى على المضمون الرمزي الثقافي، من حيث إعادة التشكيل والتصحيح والتنقيح والمراجعة والتحليل وإعادة التقييم؛ كلها عمليات تدخل ضمن إعادة التشكيل الإدراكي الكلي. فأحد الأمثلة حول الدور العنيف للثقافة ما ذكره ملفين ديفلور وزميله عن "قانون بوشيدو الذي غرس في نفوس العسكريين اليابانيين في الحرب العالمية الثانية. ويقضي هذا القانون بأن الاستسلام أو الوقوع في الأسر أمر فوق الطاقة، وأنه عار وخزي لا يمكن تحملهما. فقد كان قادة الطائرات الانتحارية اليابانية المشبعين بثقافة البوشيدو يحلقون بطائرات مثقلة بحمولة من القنابل، وهم متلهفون للطيران، وليس لديهم من الوقود إلا ما يكفي للوصول إلى أهدافهم فقط، ولا يترددون في الانقضاض على السفن الأمريكية والارتطام بها لتفجيرها. ولم يكن هؤلاء الأشخاص يتصرفون كمجانين ، وإنما كانوا يتصرفون بشكل طبيعي ضمن نطاق ثقافتهم".[1] في مقابل الرمزية الثقافية اليابانية، هناك نموذج المهاتاما غاندي "الكفاح السلمي" ضد الاستعمار البريطاني؛ الذي أصبح أسلوبا مميزا في تاريخ مناهضة الاستعمار المعاصر والحصول على الحقوق دون اللجوء إلى القتال المسلح؛ إنه طريق المقاطعة للاستعمار بكل أشكالها والتعبير السلمي عن الرفض.

تمتد جذور الإستراتيجية الثالثة في علم الأنثروبولوجيا اللغوية التي تربط بين نشوء المعنى واللغة المستخدمة؛ على افتراض أن أي فرد يعبر عن إدراكاته وطريقة تفكيره بواسطة اللغة، هذه الأخيرة هي الوعاء الذي يحمل الإدراكات وسوء الإدراكات، المعاني العنيفة وغير العنيفة. لذلك بطريقة أخرى، اللغة المستعملة في الخطاب والاتصال والحوار هي مركز إعادة التشكيل الإدراكي أو ترسيخ آخر جديد؛ فعندما تستخدم لغة التهديد، الاستعلاء، الكبرياء، لا شك أنها تزيد من تصعيد العنف وحث السلوك نحو الحرب والعكس صحيح بالنسبة للغة التي تحمل مصطلحات وكلمات السلم والحوار والتعددية والتقارب والتسامح والعفو والتفاوض. أكثر الأدلة تماسكا في الاستدلال على فعالية هذه الإستراتيجية هي اللغة العامة في المجتمع بين الأفراد العاديين، بحيث عندما يستخدم الناس لغة التهديد فيما بينهم، تندفع من أعماقهم ميول العدوانية والانتقام والميل للعطب الفيزيقي، على عكس لغة السلم. وربما يمكن هنا اشتقاق الحكمة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: "ليس منا من نظر لأخيه بنظرة تخيفه"؛ وحديث آخر "من أشار لأخيه بحديدة لازالت الملائكة تلعنه حتى يردها"؛ وحديث "ما كان الرفق في شيء إلا زانه". لأن الفعلان الأولان يعبران عن لغة التهديد والعنف في علاقات الاتصال بين الناس المثيرة لدوافع العدوانية في حين الفعل في الحديث الأخير يعبر عن لغة السلم التي تلطف وتسكّن هذه الميول في كوامن النفس؛ بل الأكثر من ذلك، تسكّن سوء الإدراك وتعيد تصحيحه حول البيئة عندما تنتشر اللغة التي تحمل السلم. وهذه هي الخلفية النظرية التي وظفها علماء الاتصال[2] في تفسيرهم للطريقة التي تؤثر بها محتويات رسائل الاتصال الجماهيرية على السلوك. فهم يرون أن الصحف تشكل الصور في أذهاننا، وتؤثر في الطرق التي نتصرف بها إزاء المسائل العامة، ووسائل الإعلام تنمي معتقداتنا، وتؤثر في سلوكنا، وتساعدنا على ترتيب معانينا الداخلية في شكل جدول أعمال للموضوعات التي نفكر فيها. ووضع تسلسل هرمي عن مدى أهميتها. فهي بصفة عامة، تنشئ وتوسع وتستبدل وتثبت المعاني للكلمات في لغتنا، انطلاقا من إعطائها مضمونا معرفيا مميزا نتصرف على منواله.

(1-)ملفين ديفلوروساندرابول - روكيتش، مرجع سبق ذكره، ص. 379.

(2)- John M. Wiemann and Howard Giles, "Communication In Interpersonal and Social Relationships," In Introduction to Social Psychology, 2nd ed. Ed. Miles Hewstone, Wolfgang Stroebe and Geoffry M. Stephenson (USA: BlackWell Publishers, 1996), pp.316 -40.

لذلك، تعتمد عملية إعادة التشكيل الإدراكي في جزء كبير منها على المحتوى الإعلامي لوسائل الإعلام بشكل تؤدي إلى صياغة المعاني بشكل معين ووفق منظور معين يخدم أهداف إستراتيجية حرب العقول. إن مجال التفاعل والتأثير هو البنية المعرفية للعقول التي تحتوي مصفوفة من الإدراكات وسوء الإدراكات حول البيئة الإستراتيجية، يأخذ التفاعل شكل تعديل الموجود أو إنشاء المعاني الجديدة حول موضوعات موحدة بين طرفي الصراع مثل الديمقراطية، الثروة، الحياة، الفن، الذوق، السياسة، الاقتصاد، الانتماء، الهوية. ينشأ المعنى لأول مرة ثم يتم تعهده بعمليات التعزيز المعرفي كتلك المشابهة في نظرية التعلم الاجتماعي،[1] عن طريق سلسلة من الأدلة المتسقة حول معنى واحد، وتوفير جوانب الجذب في المعنى الجديد، وبيان مظاهر الامتياز في المعنى الجديد، وأيضا الاستعانة بالبرهان الاجتماعي كما يعتقد روبرت شيالديني.[2]لا شك أن في إستراتيجية إنشاء المعاني، تظهر الحاجة الملحة للمعلومات بشكل مكثف وذات مصداقية ومعالجة ومصففة بطريقة صحيحة. تتميز المعلومات بدعمها للمعنى الجديد وتقليص جوانب الجذب وإظهار نقاط النقص في المعنى غير المرغوب. سوف يساهم التقدم في توفير هذه المعلومات بهذه المواصفات باتجاه التقدم في نجاح إستراتيجية حرب العقول. لذلك، تطلب في نوعية المعلومات المتدفقة شرط الفعّالية والمناسبة. بمعنى الفعّالية في النفاذ إلى البنية المعرفية للفرد بسهولة ودون تحريف أو تشويه لها ومناسبتها للموضوع المراد الإقناع به. باختصار، تعتمد هذه الإستراتيجية على عملية إنشاء المعاني في الفرد الذي من المفترض أنه بموجبها يتصرف. إضافة إلى أن هذه العملية يمكن أن تكون على شكل إنشاء جديد للمعاني، أو استبدال معاني بأخرى، أو تثبيت المعاني الجديدة.

إحدى مستويات التدخل المعرفي الأخرى في إعادة التشكيل الإدراكي هو عملية صناعة القرارالتي عادت لا تجري كما هي مرغوبة أو وفق الظروف الطبيعية ولا تصل إلى النتائج المقصودة بسبب الظروف السابقة الذكر وأخرى. على افتراض أن إحدى مصادر إنتاج السلوك النزاعي على مستوى عملية صناعة القرار هي الاعتقاد المركز بشكل مزمن حول الذات ورؤية البيئة الأمنية بعيون ذاتية ضيقة، الأمر الذي يعني التحليل الصارم وبالنهاية الأحكام الصارمة المركزة حول الرؤية التآمرية وتغليب النيات التهديدية للأطراف الأخرى والاستعداد للأسوأ. في مقابل ذلك، إذا سيطر التركيز الضعيف في عملية صناعة القرار، فإنه يفترض أن يغلب على صناع القرار التحليل المتسامح وتدني في إدراك التهديد وافتراض النية الحسنة نسبيا لدى الأطراف الأخرى. يقضي هذا التشخيص بأن عملية إعادة التشكيل الإدراكي تركز أكثر حول الحالة الثانية لعملية صناعة القرار وفي حالة غيابها يجب العمل على إيجادها أو صنعها من أجل تضييق فرص ظهور الميول التهديدية. ظهور هذه الميول يعني تقويض العملية الإدراكية المسالمة وسيطرة ملامح النزاع والعداء في شكل غلبة التحيز الذاتي والتبرير أحادي الجانب وعزو كل النتائج السيئة للوضع والتدهور الأمني وعدم الاستقرار وتهديد النظام الدولي إلى الطرف الآخر أو فيما يسميه بعض علماء النفس الاجتماعي "بالانتساب الخارجي". فعلى سبيل المثال، المبالغة في تضخيم دور القوة العسكرية في السيطرة على البيئة الإستراتيجية وبخس إمكانية الطرف الآخر في إحداث ضرر أو زعزعة الاستقرار الأمني والمبالغة في شيطنته ووضع اللائمة عليه، عادة هي عوامل تؤدي إلى تأجيج مشاعر الميل نحو الحرب و الحل العسكري مما يحوّل المنطقة إلى بيئة حرب وعدم استقرار. وهذا ما ظهر في تصورات الإدارة الأمريكية في عهد جورج بوش الابن من 2001 إلى 2008، التي بالغت في

(1)- Larry A. Hjelle& Daniel J. Ziegler, Personality Theories : Basic Assumptions, Research, and Applications, 3rd ed. (New York: McGraw-Hill International Editions, 1992), pp. 373-76.

(2-)روبرت شيالديني، التأثير: وسائل الإقناع، تر. سعد جلال (القاهرة: دار الفكر العربي، 1988)، ص ص. 37 -40.

الإيمان بدور القوة العسكرية في السيطرة على النزاعات الإقليمية واحتواء التهديدات الأمنية عبر العالم. وكان الافتراض الذي قامت عليه السياسة الخارجية الأميركية آنذاك هو أن النشر المكثف والمتكامل للقوة العسكرية سوف يؤدي إلى تخفيف النزاعات واحتواء الأوضاع المتفجرة في منطقة الشرق الأوسط بالذات، لكن هذا الإدراك الأحادي الذاتي الجانب أدى إلى ظهور بؤر أخرى للنزاعات بالإضافة إلى الموجودة منها؛ مثل العراق واليمن والصومال وباكستان وإيران. إن هذا النوع من الخطأ في الإدراك المعرفي سيكون مركبا ومدركا بواسطة الميل إلى الافتراض أن النظرة الخاصة الذاتية هي صحيحة، كما أن مثل هذه النظرة تقرّب عملية صناعة القرار من التغذية الرجعية السلبية، وتحصّنها من الانتقاد الذاتي. فقط الإخفاق الشامل للسياسة الخارجية –كالذي حدث لسياسة جورج بوش الابن- سيكون كافيا لكسر هذه الحلقة المغلقة من الإدراك الذاتي الدائري ويفرض على صناع القرار إعادة النظر ومراجعة القرارات السابقة. لكن إلى أن تحدث مثل هذه التغيرات المأساوية، فإنه يستمر ميل صناع القرار نحو التحيزات الذاتية –أو بتعبير نظرية الانتساب، القيام بالانتسابات الخارجية[1]- في إسقاط الإدراكات الضيقة على عملية صناعة القرار في السياسة الخارجية. ومن الأمثلة المطروحة في هذا السياق، عزو النجاح في عقد اتفاقية السلام الإسرائيلية-المصرية في عام 1978 إلى التأثير الأميركي الحاسم؛ في مقابل ذلك، عزو المخرجات السلبية المتعلقة بالحرب الأهلية في لبنان في عام 1975 إلى القوى المحلية الشريرة أو إلى سياسات العداء للقوى الخارجية. مثل هذه الآليات الإدراكية والتحديات المعرفية سوف تلعب بشكل واضح دورا في عملية صناعة قرارات الحرب وتأجيج النزاع. يشكل الوعي بهذه الديناميكيات الإدراكية جزءً من إعادة التشكيل الإدراكي ضمن إستراتيجية حرب العقول، لأنه يترك كل طرف على دراية بخدع الذات ومغالطات الإدراك وإمكانية وقوعه ضحية لسوء الإدراك والمعلومات المضللة أو الصديقة لسوء الإدراك.

المكوّن الآخر في إستراتيجية حرب العقول في هذا المستوى من إعادة التشكيل الإدراكي هو صياغة أرضية مشتركة لتفسير العملية الإدراكية بشكل أكثر تنظيما، وتوسيع فرص سيطرة المنطق في توجيه عمليات صناعة القرار قدر الإمكان وتلافي تضليل جماعة التفكير عن طريق الاستعانة بالآراء المخالفة والانتباه إلى الخيارات المهملة أو البديلة. في مقابل ذلك، تمكين الخصم من القيام بنفس العمليات ومراعاة فرص العودة للوراء عن القرارات المتخذة المسببة للنزاع وعدم الاستقرار الأمني، أو بتعبير بعض الباحثين في نظرية المباريات[2] إتباع إستراتيجية التسامح من أجل تمكين الخصم من التراجع عن السلوك العدائي وتلطيف الإدراكات الشريرة في الذهن. على افتراض أن التباري أو اللعب يجري على مستوى الذهن قبل البيئة الفعلية للحرب، لذلك السيطرة على اللعبة في الذهن هي المستوى الحاسم لإنهاء النزاع وتثبيت الاستقرار الأمني. فعلى سبيل المثال، لو كان خروتشوف يدرك أن كنيدي يريد تقويض مركز الاتحاد السوفياتي في الميزان الإستراتيجي الكوني، لما استجاب إيجابيا لمطالب أمريكا بسحب صواريخه سلميا من كوبا عام 1962؛ لذلك فضّل كنيدي خيار الحصار البحري بدل الغزو العسكري لكوبا.

(1)- Miles Hewstrone and Frank Fincham, « Attribution Theory and Research: Basic Issues and Applications, » In Introduction to Social Psychology, 2nd ed. Ed. Miles Hewstrone, Wolfgang Stroebe, and Geoffrey M. Stephenson (Ney York: Bleckwell Publishers, 1996), pp. 168 -96.

(2) -ZeevMaoz, National Choicesand International Process (Cambridge, New York, Port Chester, Melbourne, Sydney: Cambridge University Press, 1990) pp. 503 -05.